الشيخ يوسف كركوش..مؤرخ الحلة

مهدي شاكر العبيدي

أدركته معلماً في احدى مدارس الحلة الابتدائية عام ١٩٥٩ يتزيا بزي علماء الدين، فكان منظره مألوفاً في عيون اجيال متعاقبة منذ ثلاثينيات القرن الماضي من الفتيان الحليين الذين احسن ذووهم تنشئتهم وتربيتهم واعدادهم، قبل ان تمنى هذه الحاضرة التاريخية المنجبة للعلماء والمصلحين ومناهضي الحكومات الاستبدادية على توالي العصور، بداء الخلف والافتراق الحاد بين شبيبتها في توجههم ونزوعهم لانتهاج سبل الاصلاح لمشكلات بلدهم وابتداع الوسائل الكفيلة بتحديد علاقتهم وارتباطهم بالاقطار العربية بين ان يؤيدوا مشروع الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة القائمة يومذاك بتجاهل الطابع السكاني الخاص الذي درجت عليه البلاد منذ قرون، وبذلك يكون تنفيذ هذه الخطوة مشوباً بالتسرع والارتجال، وبين ان يتأنوا ويمهدوا لهذا المشرع الذي يحلم به العرب اجمع باقامة شكل من الفيدرالية معها على سبيل التجريب وامتحان سريرة الطرف الآخر واحتراساً من استغلال هذه الوحدة المنشودة في سبيل الاستحواذ وانتهاب كل شيء من موارد البلد وتعطيل امكاناته وقدراته.

وكذا مرت الفيحاء بظرف حافل بالتوتر والانقسام بين مختلف شرائحها، ومشحون بالمقت والكراهية بدلا من الحب الذي يملأ الصدور قبل يوم ١٤ تموز، حيث انبرت هيئات واوساط معلومة تشتغل على صعيد الدين واستغلاله لماربها الاشعبية في سبيل واد كل فكرة تقدمية منطلقة، كانما الدين يحوي نصوصا تحض على التعصب وتكرس الانغلاق والرجعية، غير متورعة عن اشهار العداوة بوجه رموز الثقافة والنضال والتحرر، وحكومة بغداد تعي ما يجري ويستجد في الحلة وغيرها من مدن العراق ولا تفعل شيئاً، وهي ماضية وجادة في استحداث الموازنة بين متنوع التيارات والاتجاهات، مغضية عن تناحر الاهالي وتقاطعهم، لكن انصافاً نقول ومن باب الموضوعية انها لم تن في انفاذ خطتها لانعاش حياة الفقراء وتقريب المسافة بينهم وبين ذوي الغنى واليسار، فنشطت في تنفيذ مشاريع الاسكان وظهرت احياء جديدة في مدن القطر كافة مع تشييد مرافق اخرى من مدارس ومستشفيات فيها تقتضيها الحياة العصرية المتحضرة.

وابان تلك الايام البعيدة التي يكتنفها التعدد والتباين في مشارب الناس وارائهم في التماس حياة راقية ومستقرة بحيث لا تشيع بين فئات الشعب فيها الانقسامات والنعرات المذهبية المذمومة، وحرصاً على ان يظل الدين بمنأى عن استثماره وتسخيره لخدمة ذوي الاغراض والاهواء، طلع الشيخ يوسف كركوش على الناس بمبدأ العلمانية من خلال سلسلة مقالات نشرتها تباعا جريدة الحضارة التي يحررها محمد حسن الصوري المقيم اليوم ومنذ سنين في الصين ان لم يتوفه الله فقد ظل موافياً احبابه برسائله هنا الى ما قبل عشر سنوات، ورد عليه متشككون بنياته وداحضون حجته بعض المتشنجين وضيقي الافق من خصوم العقل والتنوير في جرائد معلومة وذات وجهين يومها.

حتى اذا ادى ذلك التشاحن والتصادم اللذان عانى منهما الجمهور ما عانى، وظل يأمل ان تعدل قيادة البلاد عن سياسة الموازنة بين الاطراف المتصارعة وتكف عن ان تدع ركاب القطار يتراشقون بالتهم ويطعن بعضهم بعضاً ويرميه بشتى النعوت والاوصاف الجارحة والقطار مواصل رحلته ليقف عند المحطة النهائية كما جاء في خطب الزعيم مرة والتي سخر منها احد الهازلين لدى توديعه الجنائز (روح خلصت من خطب الزعيم)، قلت اسفر هذا الانصراف للتباعد والتجافي، عن قيام الانقلاب المنحوس في ٨ شباط ١٩٦٣، مطوحا بالحكومة الوطنية ومقتصا من قاعدتها الشعبية العريضة رغم ما اكتوت به من جحد لسهرها المضني الطويل واخلاصها النادر للزعيم وشمل ذلك الانتقام حتى من عزل نفسه عن السياسة وتوارى بعيداً بعد ان ادرك ان لا قبل له باحتمال سياسة الموت البطيء ونزع ثوريته منه.

فاتضح كذب ما يعلنونه من شعارات وزيف ما يتمشدقون به من قيم ومبادئ، وعمت العراق الوان متنوعة من الجرائد والشناعات والمخازي التي لا ينتهي منها العد والاحصاء، واودع في السجون الوف الناس الذين خالفوهم في الراي وباينوهم في وجهة نظر ذات يوم مع انهم لا يمتون بصلة إلى الاحزاب وشمل العنت والعنف حتى الشيوخ العجزة ممن عايشوا عهود التخلف والرجعية ولم ينفتحوا على قدر من الوعي والحرية العقلية ومن دلائل ذلك ان قصد الشيخ يوسف كركوش وهو رهين الاعتقال في سجن الحلة احد هولاء المساكين السذج وخدينه في الاعتقال ايضا مسائلا ما اذا كان مخطئا في تصرفه او اقترف ذنبا، ذلك انه نطق بلفظ الجلالة اثناء دخوله دورة المياه فهل هذا جائز ومغفور، فطمأنه الشيخ يوسف بقوله ان لا تثريب عليه، هنا انبرى احد الظرفاء من شهود خلوته وانزوائه في سجنه مازحا انه يسألك ياشيخ يوسف هل ان صنيعه هذا يتوافق مع وجهة نظر السوفيت في السياسة الدولية ام انه ينحاز لمعسكر الصين الذي ابتعد عن موسكو وانفرد براي وموقف خاصين؟

فتدبر ما تجني سياسة التخليط والتهويش على الناس ما تجني، وتأمل كم هي نفوسهم عليه من التهافت والهلوسة والضعف والاضطراب، فلا وحدة افلحوا في تحقيقها بعد ان صكوا اسماع الملأ بها وثرثروا طويلا عبر التعسف والاستبداد، ولا تركوا الناس لشأنهم حتى وان انتووا تطليقهم وعيافهم لكل شأن وعمل سياسي.

وبرح الشيخ يوسف سجنه وهم موقنون سلفا باستقلاله الفكري قبيل او بعيد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، وانشغل بمراجعة كتابه (عن تاريخ الحلة) المطبوع بصيدا بداية الثلاثينيات من القرن الفائت فشمله بالتشذيب والتنقيح واضاف الى موضوعاته ما استجد طوال هذه المدة الطويلة من حوادث ومتغيرات، وطبعه ثانية مستهلاً اياه بالاية الكريمة "إنما الايام نداولها بين الناس" وللقارئ ان يستجلي ويكتنه ما وراء هذه الاشارة من معنى او رمز.

وقبلها صدر له كتاب (راي الاعراب) ربيع ١٩٥٨ بتقديم الدكتور الراحل مهدي المخزومي، متضمنا اراءه التجديدية في تيسير النحو العربي، وبهذا يتجلى تشعب اهتماماته في ميدان الثقافة وعمله الصامت في غاية من الزهد في الشهرة وحتى ان ينوه باسمه ويشار اليه.

وعندما زارت وفود مؤتمر الادباء العرب السابع المنعقد ببغداد نيسان ١٩٦٩ مدينة بابل الاثرية قدم الشيخ يوسف كركوش نسخة مجلدة من تاريخ الحلة الى ادارة المؤتمر ممثلة في شخص اديب مصري كبير وبطلب من قيادة حزب البعث لتجميل صورتهم في انظار الادباء عامة ومباهاة باحتضانهم وايلائهم الرعاية والتشجيع وربما تعبيرا عن ندامتهم واحساسهم بالاثم جراء ما الحقوا بالشيخ يوسف من جحود وكنود واذى ايام ١٩٦٣ ولانه اكبر الباحثين سنا في هذه الحاضرة التاريخية العريقة.

وكذا غادر هذا العالم وفي هذا الزمن الرديء في ٤ حزيران عام ١٩٩٠ قبل ان تستشري الاحقاد والضغائن بين الناس وتطغى النعرات المقيتة وتتحكم في مسالكهم وتصرفاتهم، فصرنا احوج الى الاسترشاد بمنهجه الهادي في احترام ادمية الانسان وشعوره ومواطنته، علما انه كان مطويا في سنواته الاخيرة على كمد ولوعة لتغييب احد اصهاره بتلفيق تهمة انحيازه لحزب الدعوة، هو الذي يختلف عنهم في نزعته المذهبية، فتامل ماذا تعني المصاهرة عند العراقيين واواصر المحبة التي يجهد المخربون الاشرار لفصمها وبالتالي تفريقهم وتشتيتهم.؟

زيـــــارة الى مقـــــام الحـــلاج

مفيد الصافي
تصوير نهاد العزاوي

طافت امام ناظري خيالات من محاكمة الحلاج ونهايته المأساوية ونحن نعبر الازقة في طريقنا الى زيارة مقامه في محلة المنصورية في الكرخ، وبينما كنا نحث الخطى بين الشوارع والمنازل القديمة، ونتوقف أحيانا سائلين عن العنوان.

زيارة الضريح

عبرنا منطقة العلاوي من موقع سينما بغداد متخذين خطا مستقيما،وفي نهاية الشارع واجهنا ضريح الشيخ معروف الكرخي، المتصوف المشهور، وهناك سألنا عن ضريح الشيخ منصور الحلاج فأرشدنا اليه. قبل الوصول إلى محلة المنصورية واجهنا صرح كبير ، يسمونه قبر الست زبيدة —في الحقيقة هو تربة زمرد خاتون- ،وأخيرا قادنا طفل نحيل في الثانية عشرة من العمر إلى موقع ضريح الحلاج،قرب كلية طب الأسنان، خلف مستشفى الكرامة.التف حولنا بعض الصبية وشاهدنا عددا من الأولاد يسرعون لمناداة شخص، اطلقوا عليه كلمة (جدو- جدو) والذي تبين بعد ذلك انه الشيخ المسؤول عن الضريح.

كان شيخا طاعنا في السن قد فقد بصره، في نهاية السبعينيات من العمر ولحيته البيضاء الطويلة زادته وقارا، رحب بنا وفتح لنا الباب لنطل منه على عالم الحلاج الواسع.

مشاهد المقام

البناء حديث العهد، مبني بقطع الطابوق الحسن الشكل،أعيد بناؤه عام ١٩٩٢، يقف على مساحة لا تتجاوز مئة متر مربع، وفي الماضي كان منزلا عتيقا يتألف من غرفتين داخلية وخارجية، وكانت الغرفة الداخلية صغيرة المساحة، لا تكاد تتسع إلى الزوار الذين يحضرون من كل مكان.أما الغرفة الخارجية فتقدر مساحتها بأربعة أمتار في ثلاثة.وحينما أعيد البناء جعلوه غرفة واحدة، يقف قبر الحلاج في جهتها الغربية بشكل متعامد مع اتجاه القبلة!! قياساتها نحو خمسة امتار في ثمانية وارتفاعها نحو أربعة امتار، تتوسط السقف قبة صغيرة تنزل منها ثريا صغيرة، وعلقت على الجدار المواجه للباب صور عن مكة المكرمة ووصايا لقمان الحكيم. وهنالك نافذتان على الجانبين علقت عليهما ستائر خضر.

اما مقام الحلاج فهو صندوق من الخشب وقد غطي بقطعة قماش اخضر اللون كتب عليها اسم الله، يتراوح طوله متران وعرضه متر، وكان موضوعا بشكل متعامد مع القبلة وهذا أمر أثار استغرابي،ولم يستطع الشيخ ان يجيبني عن ذلك!

قال الشيخ سبع إبراهيم رشيد الشيخلي، ٧٩ عاما " ان الحلاج هو من نهاوند وهو شيخ صوفي، أحب الله فأحبه الله، فأعطاه القدرة اذا مد يده الى السماء فانها ستمطر دراهم بأمر الله، وان صاحب المقام رجل له كرامات"

وعن سبب تسميته بالحلاج ذكر انه كان يحلج القطن وقد أعطاه استاذه مرة كمية كبيرة من القطن وطلب ان يكملها بأسرع وقت، وكم كان تعجب الاستاذ شديدا حينما فوجئ بأن الحلاج قد أنجز عمله قال الشيخ "ان الملائكة ساعدته؟ فما تقول انت؟ فكنت حذرا في اجابتي فقلت " لاشك في ان الرجل كانت له كرامات كثيرة".

رائحة المقام

ثم قال الشيخ سبع " إن رائحة المقام تنبعث كالمسك " ثم اكد لي ان المكان كان لا ينقطع من الزوار الذين يأتون من كل مكان وحتى من فرنسا وبريطانيا، وقال واثقا " لقد اكد لي احد الصحفيين الفرنسيين، انهم هنالك في فرنسا، متأثرون ومعجبون بشخصية الحلاج كثيرا " لقد اسلم الكثير من الفرنسيين بسبب كتبه!!

سألته " هل كان الحلاج هو الاول في زمانه في المذهب التصوفي فقال " كلا، لقد كان تلميذا عند متصوف كبير وهو الشيخ جنيد البغدادي، لقد عاصر زمن المقتدر العباسي، وقد قتلوه بعد ان تعرض الى الضرب، لقد ضربوه ٧٧ جلدة ثم اعدموه بالسيف وقيل احرقوه ورموا برماده في نهر دجلة،ولقد فاض النهر في ذلك العام واغرق الناس حزنا على الشيخ.

مقبرة الاطفال

ثم اضاف الشيخ سبع "ان القبر هذا، مقام له كان يصلي فيه وكان الحلاج له غرفة هنا، و قبل ان يتم تعمير المكان كان مقبرة للأطفال فكان الناس الذين يأتون الى زيارته لا يعثرون على المكان بسهولة لانه يتوسط المنازل.

وعن عمله قال الشيخ سبع مضى علي هنا خمسة عشر عاما وكنت مؤذنا في الاوقاف وحينما أحلت على التقاعد، عملت في المقام، في البداية كنت أعود مساء الى منزلي في العطيفية وبعد ذلك جعلوا لي منزلا اسكن فيه في المنصورية بجوار المقام وقد اقتطع منه، لدي ستة أولاد، وأنا أقرا القران في المقام واقوم على خدمته، وحينما سألناه لماذا يسمونه جدو ضحك قائلا " الأولاد يحبونني هنا فليس لدي وجه مكروه"

وضوء الدم

في قصة الحلاج او وضوء الدم لميشال فريد غريب، وهي قصة تاريخية تقول " ما ان ولج الحلاج قاعة المحكمة حتى أيقن ان ثمة مؤامرة تحاك لقطع عنقه: ابو عمر قاضي بغداد للضفة الشرقية يرأس الجلسة.... شيخ حسن المظهر انيق الملبس يفوح من تحت ابطيه شذا المسك والعنبر اما فتاواه فتشم منها روائح سمك غير طازج.اما الوزير حامد.... فبقي مصمما على انجاح مخططه مهما كلف الامر.....جماعة من الشهود يناهز المائة يقفون وراء الباب بانتظار دورهم.....لم يمض على هزيمة الزنج سبع سنوات حتى اندلعت ثورة اعنف وابعد مدى كادت تطيح مرارا بالدولة العباسية الا وهي ثورة القرامطة.... في مجتمع يسوده الحرمان والطغيان والفوضى

عذابات الحلاج

وفي كتاب الحلاج شهيد التصوف للكاتب طه عبد الباقي سرور..... (ثم قام الحراس فشدوا وثاقه (الحلاج) الى الة الصلب واخذوا يتفننون في ايلامه وعذابه بالسنتهم وسياطهم. ومضى يوم..... ليلة باتها مقيدا مصلوبا مقطوع اليدين تنزف جراحه دما وبات جمهور البغداديين حوله على الضفة الغربية لدجلة يرقب المأساة. وجاء صباح اليوم الثاني فتضاعف كما يقول (ابن كثير) عدد البغداديين حول مصلبه واجتمع من العامة عدد لايحصى، وبدأ العذاب من جديد في يومه الثاني فقطعت رجله اليمنى ثم اليسرى ومع قطرات الدم ارتفعت السياط). يقول الخطيب البغدادي سمعت فارسا يقول "قطعت اعضاء الحلاج عضوا عضوا وما تغير لونه وما فتر لسانه عن ذكر الله". وعن ابن فاتك قال لما قطعت رجلا الحلاج كان يقول....اقتلوني ياثقاتي ان في قتلي حياتي ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي- ان عندي محو ذاتي من اجل المكرمات - وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات- فاقتلوني واحرقوني- بعظامي الفانيات- ثم مروا برفاتي في القبور الدارسات- تجدوا سر حبيبي في طوايا الباقيات.

ثم تتابعت مشاهد العذاب.....ومضى الليل بطوله وبهوله وجاء اليوم الثالث بعذابه ومع الفجر طافت جموع الشعب في بغداد تحطم وتدمر وتطالب بانقاذ الحلاج.

ويقول ابن كثير لما كان اليوم الثالث تقدم الوزير حامد الى الخشبة فتلا امر الخليفة ثم قرا فتوى الفقهاء بان في قتل الحلاج صلاح امر المسلمين ثم امر الجلاد بقطع رأسه والاجهاز عليه. ويقول الحلواني قدم الحلاج الى القتل وهو يضحك فقلت يا سيدي : ما هذا الحال؟ فقال" دلال الجمال الجالب اليه اهل الوصال". ويقول ابن خفيف ثم ضرب عنق(الحلاج) فبقي جسده ساعتين من النهار قائما ورأسه بين رجليه وهو يتكلم بكلام لايفهم فكان اخر كلامه :احد، احد.

ويروي ابن انجب الساعي عن الشيرازي انه قال: لما صلب الحلاج بقي ثلاثة ايام لم يمت فانزلوه وفتشوه فوجدوا معه ورقة مكتوبة بخطه وفيها اية الكرسي وبعدها هذا الدعاء: اللهم الق في قلبي رضاك واقطع رجائي عمن سواك واعني باسمك الاعظم واغنني بالحلال عن الحرام واعطني ما لا ينبغي لاحد غيري وامتني شهيدا.

ثم لف جسده في بارية وصب عليه النفط واحرق وحمل رماده على راس منارة لتسفه الريح في السادس والعشرين من ذي القعدة سنة ٣٠٩ هجرية- ٢٦ مارس ٩٢٢ ميلادية.

في هيئة الاثار والتراث

قال دكتور حميد محمد حسن من هيئة الاثار، متخصص بالاثار الاسلامية.

يقع هذا المرقد بالقرب من مقبرة الشيخ معروف الكوفي وبالقرب من مستشفى الكرامة بالجانب الغربي من بغداد. وهو الولي الشهيد ابو مغيث الحسين بن منصور الحلاج. من اشهر رجال التصرف الاسلامي،و هو على رأس الزهاد بعد الجنيد والسيد احمد الرفاعي واويس القوني. واصله من بيضاء فارس وقد عرف بالبيضاوي.

ولد في حدود عام (٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م) في الطور بالقرب من البيضاء من اعمال فارس. وهو حفيد مجوسي من عبدة النار. وقيل انه من سلالة الصحابي ابي ايوب الانصاري، نشأ بواسط العراق ثم انتقل الى البصرة وقضى الاعوام من سنة (٢٦٠ — ٢٨٢ هـ) في خلوة مع شيوخ الصوفية ومنهم التستري وعمر والجنيد البغدادي ثم انفصل عنهم وخرج الى الدنيا يدعو الى الزهد والتصوف وظهر امره في سنة (٢٩٩ هـ) فاتبع الناس طريقته في التوحيد والايمان ثم كان يتنقل في البلدان وينشر افكاره طالباً اصلاح ما افسده الترف واللهو والانصراف الى الله. فظنوا انه يطلب الثورة على الدولة باسم الدين فمكروا به ودبروا له ما دبروه. وكثرت الوشايات الى الخليفة المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه فسجن وعذب وضرب ثم قطعت اطرافه الاربعة وهو ساكت لايتاوه او يستغيث وجز رأسه واحرقت جثته ولما صارت رماداً القيت في دجلة ونصب رأسه على جسر بغداد. وقيل انه لم تحرق جثته وانما دفنت وكان ذلك يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي العقدة سنة (٣٠٩ هـ) وترك خلفه مؤلفات عديدة واقوال اهل السير فيه كثيرة حوتها عدة كتب ورسائل ومن اشهر هذه التآليف (الحلاج ولي الله) للقاضي جلال الدين المنصف، ولبعض المستشرقين فيه مؤلفات شتى لا تخلو من الدس الرخيص على هذه الشخصية الفذة وعلى امثاله من اعلام الاسلام.

قال ابن النديم في وصفه: انه يدعي كل علم جسوراً على السلاطين والحكام خارقا للنظام وله ستة واربعون كتاباً كلها عربية التسمية.

والمعروف ان الحلاج احرقت جثته والقيت رماداً في دجلة اما القبر المذكور فهو لمحمد بن احمد القطان المعروف بابن الحلاج كما ذكر البحاثة المحقق الدكتور عماد عبد السلام رؤوف في جريدة البلد البغدادية بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٦م.